المثقف السعودي.. وثقافة الحوار

د. يوسف حسن العارف
أديب وشاعر وناقد

تجمع الأدبيات المتخصصة في الشأن الثقافي على أن تعرف الثقافة بأنها رؤية معرفية يتبناها أو يعيشها الإنسان المثقف نتيجة لما اكتسبه من العلوم والمعارف والعادات والتقاليد والسلوكيات الحضارية في الوقت الذي تتنامى في الرؤية وتجدد من خلال المشاركة في كل جديد وحديث ومعاصر في دنيا العلم والشؤون المعرفية.

وهذا التعريف يتيح لنا أن نحدد الثقافة بزمنيتها تاريخها وماهيتها ومآلاتها فهي مجموع العلوم والمعارف التي قدمتها البشرية منذ الماضي: حيث احتراف الكتابة وتعلم القراءة وتخريج المتعلمين وخلال الآن: حيث التنامي المعرفي والتقدم العلمي، وحتى الغد المستقبل: وما يبشر به من تطور وتجديد في حقول المعرفة وأبوابها المتعددة.

ولذلك فبقدر ما تكتسبه الذهنية الإنسانية من هذه العلوم والمعارف سواء كان ذلك في ماضيها أو حاضرها أو مستقبلها يكفي ليدخل صاحبها في عداد المثقفين المنتمين للحقل الثقافي. وبهذا يكون تعريف المثقف هو: الذي يكون لنفسه رؤية معرفية من كل ما اكتسبه من علوم ومعارف وقيم ويتواصل معها مثاقفة وحواراً ومداخلة ويستوعب – ما أمكنه – كل جديد من المد الثقافي إن كان تراثياً أو معاصراً وإن كان عربياً أو أجنبياً.

وما دام الأمر كذلك فالثقافة عطاء إنساني معرفي وحضاري، والمثقف إنسان استوعب من هذا المد المعرفي والحضاري حسب قدراته الذهنية إن كان قليلاً أو كثيراً حافظ عليه وطوره تجديداً وتحسيناً وعمل على نشره حسب الوسائط الإيصالية القادر عليها.

وفي حالتنا «السعودية» سنجد كثيراً من الطروحات الثقافية التي تنبئ عن ثقافة ما كما تبنئ – في الآن نفسه – عن مثقف ما تستطيع أن نؤطره من خلال البعدين التاليين:

المثقف الإيجابي: وهو المثقف المنتج / المبدع الذي ينمي ما عنده من ثقافة بالتثاقف مع الآخرين وهو الذي يترجم ما عنده من ثقافة إلى سلوكيات ثقافية (تأليف حوارات، إنتاج، عطاء، وجود، حضور، بفاعلية وتأثير).

والمثقف السلبي: وهو المثقف / المستودع الذي يخزن مكتسباته المعرفية ويكنزها. وهو الذي لا يترجم ما عنده

الثقافة رؤية معرفية يتبناها أو يعيشها الإنسان المثقف نتيجة لما اكتسبه من العلوم والمعارف والعادات والتقاليد

من ثقافات إلى سلوك معرفي/ إنتاجي. هو الذي لا يبدو عليه علامات التثقيف والمثاقفة وهذا في النهاية يطلق عليه المثقف السلبي، دعي للثقافة أو مثقف سطحي، مثقف مستهين.

وبمداخلة سريعة مع واقعنا السعودي وتاريخية الثقافي والمعرفي سنجد أن وتيرة التشكل السياسي والاجتماعي والتربوي في بلادنا سرعت بالمنجز الثقافي ودفعته إلى الأمام؛ فها هي الجامعات والمدارس والمعاهد. وها هي المؤسسات الثقافية تغطي ما بين الماء والماء، وعلى مستوى المنجز نقرأ ونسمع ونشاهد ما يتم في معارض الكتب الدولية ومهرجان الجنادرية وسوق عكاظ، والجوائز الثقافية، والأسماء اللامعة في المشهد الثقافي السعودي. ذلك كله يشي بواقع ثقافي مبهج وهذا في الطور التكويني للثقافة.

أما في الطور التوليدي – وهو ما نعبر عنه بالممارسة الثقافية أو الإنتاج الثقافي – فمن كثرته وتنوعه وعمقه وسطحيته ما يجعلنا ننادي بضرورة غربلة هذا الكم الكبير من الثقافة والمثقفين بحثاً عن المثقف الإيجابي/ الطليعي، المثقف الفاعل، المثقف المبدع المنتج. وحيثما لن نجد إلا اليسير وهو ما يجعلنا نتساءل: كيف يكون هذا في ظل المنظومة الثقافية المتطورة والمتنامية تاريخاً وواقعاً والتي يعيشها مجتمعنا السعودي؟ وللإجابة عن تساؤل كهذا لا بد من التأكيد على مسألة السلوك الثقافي الذي هو دلالة على واقعنا الثقافي وتناميه إرثاً ومعاصرة، والذي هو نتاج هذه البيئة الثقافية المميزة، والذي هو توليد وتجديد لفعالياتنا الثقافية في مرجعياتها المعتبرة. ولكن الذي يظهر للأسف أن كثيراً ممن ينضوي تحت سقف الثقافة والمثقفين يفتقد القدرة على تحقيق هذا السلوك في حياتنا الثقافية تفاعلاً ثقافياً (مداخلة ومحاورة ومثاقفة) حتى نكون في الصورة التي يريدها لنا مجتمعنا وقيادتنا الراشدة التي تيسر لنا سبل الثقافة وتسهل علينا الحصول عليها والتعبير عنها من خلال منابرنا الثقافية: الكتاب – الصحيفة – الرأي – المذياع – منابر الأندية الأدبية – قاعات المحاضرات والمؤتمرات – منابر المساجد – جمعيات الثقافة والفنون. وغيرها من الوسائل التي هيئت لنا لإيصال خطابنا الثقافي المميز.

ومن هنا يمكن تشكيل خطابنا الثقافي السعودي المعاصر على يد ثلة مباركة من مثقفي هذا البلد الكريم عبر آليات الحوار والمثاقفة آخذين في الحسبان الضغوط والمتغيرات الكبيرة التي يعانيها الخطاب الثقافي العربي بعامة ويتأثر بها – لا شك – الخطاب الثقافي السعودي الذي يتكور على مجموعة من الإشكالات ليس أولا المنافسة المحيطة، وليس ثانياً الهوية والخصوصية وما تتطلبه من خطاب ثقافي واع ومتميز، وليس ثالثاً خطاب الآخر وتحكمات السياسة المعاصرة قمعاً واستلاباً، وليس آخرها المد الإعلامي والانفتاح الكوني على فضاءات ثقافية مؤثرة بل ساحبة للبساط من تحت أقدام المثقف الوطني.

ولعل المخرج من هذه الأزمة الثقافية هو الحوار الثقافي مع جميع هذه المدخلات السلبية المؤثرة حتى نصل إلى ثقافة ناضجة ومثقف واع مستنير يعرف دوره ويعي أسلوبه ويحقق الغايات المرحلية الوطنية والغايات النهائية لهذا الوطن ثقافة وإنساناً.

إن الحوار الثقافي أو ثقافة الحوار مدخل أساسي إلى تجسير الفجوة بين واقع المثقف والثقافة السعودية والمأمول المستقبلي فيها وذلك عبر آليات الحوار وأدبياته المعروفة. ولكن المهم في هذه المسألة أن حوار المثقف السعودي بات مغيباً أو غائباً بالفعل ولذلك عقد مؤخراً اللقاء الفكري الوطني بعنوان «واقع الخطاب الثقافي السعودي وآفاقه المستقبلية» تحت إدارة وإشراف مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، وشارك فيه أكثر من مائة مثقف ومثقفة وذلك في منطقة الأحساء في الفترة من ٥ –٦ / محرم/ ١٤٣١هـ.

والمتصفح لمخرجات اللقاء وفعالياته يقف على أزمة الحوار بين المثقفين الحقيقية؛ ففي أكثر من ورقة عمل أو مداخلة بالرأي، أو لقاءات المثقفين يتبين مدى هذه الأزمة الثقافية ولذلك كانت التوصيات تركز على هذا البعد الثقافي الغائب أو المغيب وليس أدل على ذلك من هذا الرصد لمخرجات اللقاء الذي بثته مجلة شوارد العنكبوتية.

ونستخلص منه ما يمس قضيتنا التي نناقشها في هذا المجال وهي حوار المثقفين أو المثقف والحوار:

- أهمية دور الحوار حول حقوق المرأة.
- الانتقال من مرحلة الهيمنة والتخوين إلى مرحلة التسامح والقبول.
- الاختلاف حق مشروع ضمن دائرة ما يجب الاتفاق عليه وهو الهوية والخصوصية والوحدة الوطنية.
- فتح الحوار حول الخطاب – الثقافي.
- الحوار الفعال الصادق عماده محبة المتحاورين لبعضهم.
- وجود أرضية مشتركة للمتحاورين كافة لا يمنع من اختلافهم.
- لدى النخب الثقافية عوامل اتفاق أكثر مما لديها من عوامل الفرقة.
- استثمار دعوة خادم الحرمين إلى حوار أتباع الأديان أدى إلى مزيد من الانفتاح الثقافي على الآخر.
- ضرورة تعزيز التعايش والاستماع إلى أصوات الأقليات.

- المؤسسات التعليمية لا توفر مناخاً صحياً للنقاش والحوار بين المنتسبين إليها.
- الدعوة إلى تصالح المؤسسات الإعلامية والثقافية مع التيارات كافة.
- أهمية مشاركة المؤسسات الإعلامية والتعليمية والثقافية في حوارات مشتركة.
- ضرورة توسيع دور مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني.
- ألا يكون هذا الحوار مظلة لتكريس سياسات الأمر الواقع.
- توفير مناخات النقاش تواصلاً مع أسئلة الطفولة.
- إزالة الاحتقان بين المثقفين ثم بدء الحوار.
- لا يشترط أن يخرج الحوار بتوصيات ويكفي المتحاورين تبادل الرأي باحترام وقبول.
- الاستفادة من الحوار الثقافي كما أقرَّ خادم الحرمين بالانطلاق من أمور الاتفاق.
- يجب إحسان الظن بالآخرين مع حق الاختلاف في الرؤية.
- تخصيص حوار لثقافة النفط وكيفية ضخها في نفوس أفراد المجتمع.
- واقع خطابنا الثقافي في حوارتنا يمثل المستقبل.
- لا بد من القبول بالاختلاف بحيث لا يكون الخلاف.

ولذلك بات من المهم جداً أن يتبنى المثقف السعودي ثقافة الحوار مع الذات ومع الزميل ومع الآخر ومع الفكر والتيار المماثل أو المخالف ضمن نظرية القابلية والامتزاج الثقافي والمشترك الإنساني وما هو متفق عليه أكثرمما هومختلف فيه.

وهذا يعطينا مؤشراً على تكوين المثقف السعودي وتشكلات خطابه المعرفي، فالجميع تربَّى وتعلم في البيئة السعودية وعلى المناهج التعليمية الموحدة منذ الطفولة وحتى المرحلة الجامعية. ثم تأتي الفروقات الثقافية في مراحل التدريس العالي داخل البلاد أو خارجها مع ما في ذلك من فروق ومدارس وتوجهات أدت إلى الاختلاف الثقافي والمآلات (المابعدية). وهذا كله يصبح من الدوافع الإيجابية للتحاور والتلاقي على كلمة سواء ضمن هويتنا وخصوصتنا التي لا ينكرها أي مثقف سعودي.

ولعل ما تختتم به نظرتنا الإيجابية إلى واقع الثقافة السعودية ومآلات المثقف السعودي في ظل الدعوة إلى ثقافة الحوار، وحوارية الثقافة هو ما يمكن تسميته بـ «التبادلية البنائية» للمثقف الطليعي والمستقبلي فالذي نتوخاه ثقافياً مستقبلاً ومعاصراً على النحو التالي:

- ثقافة الانتماء والمواطنة بديلاً عن الاغتراب والتمرد والرفض.
- ثقافة العطاء والإيثار والتطوع بديلاً عن الأنانية وحب الذات والفردانية.
- ثقافة التلاقي والتفاعل بديلاً عن الانشطار والتشنج والاستعلاء.
- ثقافة الإتقان الثقافي والجودة بديلاً عن الاستخفاف والتهاون.
- ثقافة البناء والتعمير والتنمية بديلاً عن الهدم والتدمير والتخريب.
- ثقافة الوفاء والعرفان والتواصل بديلاً عن الجحود والانقطاع والفرقة.
- ثقافة الاندماج وعمل الفريق بديلاً عن التبعية والتماهي والانبهار.
- ثقافة الوسطية والاستنارة بديلاً عن الانغلاق والجمود والانكماش.
- ثقافة التعددية والوعي بديلاً عن التأزم والتقوقع والتخلق.
- ثقافة التفعيل والتنفيذ بديلاً عن التجاهل والتفريط.
- ثقافة الوحدة والتكتل بديلاً عن التشرذم والانقسام والتشتت.
- ثقافة الحوار والمشترك الإنساني بديلاً عن الصراع والتصادم.

ولتحقيق هذه التبادلية يحسن بالمثقف السعودي المستنير الواعي بأزمتنا الثقافية أن يلجأ للحوار الثقافي ويؤمن به مخرجاً لكثير من تلك التأزمات ومن ثم على الدولة أن ترقى بمثقفيها عبر آلياتهم المعرفية وأدواتهم الفكرية ومناهجهم العلمية نحو الإنفتاح الواعي واللغة الراقية والحوار الخلاق والتفاعل والاندماج مع الآخر تأثراً وتأثيراً وعلى قدم المساواة، وإدراك الصلة الحميمة بين الهوية الوطنية والخصوصية الحضارية. والتوجهات العالمية.

مراجع أفادت في بنية هذه المقالة:

- د. عائض الردادي: موقع الثقافة على خارطة التنمية. ط١، ١٤٣٠هـ.
- أ. هلال حسين فلمبان: دور الحوار التربوي في وقاية الشباب من الإرهاب الفكري. مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني، الرياض، ط٢، ١٤٣٠هـ.
- د. عبد الله التطاوي: الحوار الثقافي / مشروع التواصل والانتماء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، مشروع القراءة للجميع، القاهرة: ط ١، ٢٠٠٦م.
- د. يوسف بن حسن العارف: أوراق الربيع / قراءات ومداخلات نقدية ثقافية، نادي جازان الأدبي، ط١، ١٤٢٢هـ.
- رقية سليمان الهوبريني: الخطاب الثقافي السعودي إلى أين؟ جريدة الجزيرة، الرياض، الأحد ١٠ يناير ٢٠١٠م.